الحجر الكريم

في

اصول الطب القديم

ارجوزة طبية مشروحة للشيخ ناصيف اليازجي

نشرها المرة الاولى عن مخطوطة بخط المؤلف

فؤاد افرام البستاني ، استاذ الآداب العربية في كلية القديس يوسف

١

توطئة

في كفرشيما ، مسقط راس الشيخ ناصيف اليازجي ، مدرسة صغيرة ابتدائية يديرها احد رهبان الموارنة اللبنانيين فيعلم احداث القرية مبادئ القراءة والحساب . ولم يكن احداث كفرشيما ليختلفوا عن سائر الاحداث في سلوكهم المدرسي . فمنهم المجتهدون المتنبهون لاقوال المعلم ، المتنبهون لشروحه ، ومنهم اللاهون اللاعبون كل آن لا فرق عندهم بين زمن الراحة ووقت الدرس والاصغاء . فكان على المعلم ان يشتد في الانتباه ويبالغ في المراقبة ، وان يوبخ ويقاص ، وان يغضب احياناً مستعملاً الكف مرة و « الطبشة » مرات . وان يكن من الغضب ما يُدعى مباركاً فقد كانت احدى غضباته وافرة البركة ...

كان ذلك في اوائل هذه السنة . وكان المعلم يشرح عملاً حسابياً صعباً ، وقد فرض على التلاميذ الانتباه الكلي ، والنظر الدائم الى اللوح الاسود . وما هو ان حانت منه التفاتة الى الصفوف الاخيرة حتى رأى احد « عفاريت » المدرسة منصرفاً كل الانصراف عما يجري على اللوح . فهو حاني الرأس ، ظاهر الاهتمام ، يخط بقلمه يميناً ويساراً ، ثم يتوقف فيتأمل ما خطه ، ثم يعاود

الكرة ويختلس النظرات الى المعلّم . فكأنه يرسم صورةً او ينقل مشهداً . عند ذاك غضب الراهب وانتهره بعنف فـانتبه . الّا انه سرعـان ما عاد الى « شغله » فعاد الراهب الى الانتهار ، حتى انتهى الى قمة الغضب المبارك ، فتخطّى الصفوف وادّب التلام وانتزع منه الكرّاس الذي كان يرسم عليه ، فرماه بحنق على منبره .

وكان ان زار المدرسة ، في المساء ، حضرة الاب انطونيوس شبلي اللبناني ، متفقدًا شؤونها . فاخذ الراهب المعلّم يلقي اليه بطرماته مطالعاً اياه على تقدّم التلامذة ، شارحاً ما يلقاه من الصعوبات ، متشكّياً من عقبات لا تخلو منها مدرسة . . . وانتهى بان روى له حادثة صفّ الحساب ، وكانت لا تزال على طراوتهـا في ذاكرته ، واطلعه على ذاك الكرّاس المشؤوم . وما هو ان القى عليه الاب شبلي نظره حتى عرف به المخطوطة التي يهتمّ امرها اليوم . فاهداها الينا عند رجوعه .

المخطوطة

كرّاس صغير من الورق العادي « أثر جديد » . يبلغ طوله نحو ١٩ سنتيمترًا ، وعرضه نحو ١٢ سنتيمترًا ، ولا غلاف له . تضمّن ١٧ ورقة استُعملت كلهـا للكتابة على الوجهين ، واشتملت الصفحة منهـا على ١٧–١٩ سطرًا ، شاغلة ١٤–١٥ سنتيمترًا طولًا ، و٧–٧٫٥ سنتيمترات عرضاً . والكرّاس بحالة حسنة ، وان كان مصفرّ الورق الّا ان في طرف الورقة الاولى خرقاً ذهب بثلاث كلمات في اوائل الاسطر ٥ و٦ و٧ من صفحتها الثانية ، كما يظهر في الرسم ١ . وقد اجتهدنا في اعادتها ، واضعينها بين معقّفين [ ] . ولم تتأثر الصفحة الاولى بشيء من هذا الخرق ، لانها خصّت بالعنوان فقط وهو بعيد عنه . وكذلك تأثرت الصفحة الثانية من الورقـة الاخيرة بحبر سقط عليهـا فطمس ستّ كلمات تمكنّا من اعادتها بالقرينة ، وقد وضعناها ايضاً بين معقّفين .

اما الخطّ فهو فارسي واضح على قسطٍ من الاتقان . وقد استُعمل فيـه الحبر الاسود العادي ، الّا في الابيات الشعرية فالحبر الاحمر . ولا شكّ في انه

خطّ المؤلف ، الشيخ ناصيف اليازجي الوارد اسمه في اول المخطوطة ، كما يبدو جليًّا لمن ألف هذا الخطّ ، او كان مطّلعاً على شيء من آثار الشيخ بخطّه . ولم نعرض الرسالة على احد من مؤرخي الادب وعلماء المخطوطات في مدينتنا الّا حكم بانها من خطّ الشيخ ناصيف.

وقد صوّرنا الصفحة الاولى منها ، وصوّرنا معها بيتين من الشعر يحملان امضاء الشيخ لتسهل المقابلة على من اراد ذلك ، فيتحقق الشبه التام من الكلمات المشتركة في النصّين، على كون خطّ البيتين اكبر قليلًا من خطّ الارجوزة.

واذًا فانّ للرسالة قيمةً جليلةً بالنظر لكونها الوحيدة الراقية الى عصر المؤلف صادرةً عن يده ، حاملةً اثر اعتنائه العقلي والمادي . ولهذا كانت رغبتنا شديدةً في نشرها تامة . لان ما نُشر سنة ١٩٠٢ ، في مجلّة « الطبيب »[1] في باب « المتفرّقات » ، تناول الابيات دون الشرح ، ولم يخلُ من التصحيف كما سنرى . ولعلّ الناشر لم يعرف الشرح الذي نمثّله اليوم بالطبع مع المتن لاول مرة ، حراصاً على ابرازه كما خرج من يد المؤلف ، متقيّدين حتى بالنقط التي فصّل بها الشيخ ناصيف فقراته ، وبالحركات التي زيّن بها كلماته ، مستغنين عن الحواشي المشيرة الى اختلاف الروايات — الّا ما كان منها اشارة الى منشور «الطبيب» — لكون نسختنا هي الوحيدة بخطّ المؤلف.

المؤلف

اما عن المؤلف (١٨٠٠—١٨٧١) فلا نطيل الكلام ، بعد ان افضنا في «المشرق»[2] عن حياته ، وآثاره ، وقيمته عالمًا وشاعرًا. فليرجع الى ذلك من شاء.

---

١) الطبيب : مجلة طبية علمية صناعية . صاحب امتيازها الدكتور جورج بوست ؛ مديرها ومحررها الدكتور اسكندر البارودي . السنة الرابعة عشرة : الجزء الرابع : اول ايلول ١٩٠٢ ، ص ١٢٥ و١٣٦ ؛ والجزء الخامس : اول تشرين الاول ١٩٠٢ ، ص ١٥١ و١٥٢ .

٢) المشرق (٣٦ [١٩٣٨] : ٨٢٤-٨٤٣ و٩٢٢-٩٣٦) ؛ واطلب ايضًا الجزء الحادي والعشرين من « الروائع » المخصوص بالشيخ ناصيف اليازجي.

بسم الله الرحمن

الحمد لله الذي خلق الداء والدواء. والممات والحيي من بيده الشفاء. اما
بعد فيقول العبد الفقير ناصيف بن عبد الله اليازجي اللبناني انني
قد وضعت هذه الارجوزة على منهج الطب القديم الذي خبت
في هذه العصور ناره. ونبت داره. فصار اذل من وتد. بعدما
عز من جهة الاسد. وذلك لاستئثار الناس بالطب الجديد.
يعتقدون انه هو الطب المفيد. وقد علقت على هذه المتن
التكشف عن مقاصده. واضفت اليه زيادات تتم بها
فوائده. وسميته الجر الكريم في اصول الطب القديم. وانا
التمس من ذوي الانصاف ان يتلقوه بالقبول. ولا يجتنبوه
من الفضول. وبناء على ذلك
اتقدم فاقول

الطب علم يبحث عن ازالة المرض عن صحة الجسم وبقائها الى حصوله
ذكرنا في هذا البيت تعريف الطب بعلته الغائية. وهي كما ترى ارجاع
الصحة الزائلة وهو الاكثر. وحفظ الصحة الحاصلة وهو الاقل
لان الطبيب يدعى غالبا لازالة المرض عن المريض لا لحفظ
الصحة على الصحيح لما لا يخفى

وهو

رسم الصفحة الاولى من الارجوزة [ا ق] وهي بخط الشيخ المؤلف كما قدمنا

يجلّ في منازلنا هلالُ قد انكسفت بطلعته النجومُ
فصادقْ فاكتب تاريخ أرّخْ بشكر الله نعمتنا قدومُ

١٨٥٦

مثال من خط الشيخ ناصيف اليازجي وامضائه: تاريخ ولادة شكرالله بن ميخائيل مدور

على اننا نشير الآن الى ان الشيخ تلقّى، في ما تلقّاه عن ابيه ، فنّ الطبّ القديم ، وكان ابوه يطبّب على مذهب ابن سينا ، فحفظ المبادئ ولم يحترف المهنة ، على ما يظهر . حتى اذا شاهد ميل اهل البلاد الى الاخذ بمرافق المدنية العصرية بما فيها من علوم واساليب ، وتحقّق «اشتغال الناس بالطبّ الجديد لانهم يعتقدون انه هو الطبّ المفيد» ، اشفق على الطبّ القديم «الذي خبت في هذا العصر ناره ، ونبت داره . فصار اذلّ من وتد ، بعد ما كان اعزّ من جبهة الاسد» ، فنظم الارجوزة وشرحها ، وسمّاها «الحجر الكريم في اصول الطبّ القديم» [1] ، جاعلًا اياها «كالخلاصة من الاصول التي تتشعب منها الفروع» ، سائرًا على «مذهب اطبّاء الغرب الذين نقلوا عن اطباء اليونانيين» [2] . وكان ذلك سنة ١٨٥٦ ، وعمر المؤلف ست وخمسون سنة .

فواضحٌ اذًا ان عمل الشيخ لا يرمي الى تأليف علمي محض ، ولا الى بسط مذهب تطبيبي . انما هو من نوع التمرين العقلي شغل فيه قريحته النظمية بالمعروفات الطبية ، كما قد يكون شغلها بالاصول النحوية ، او بالقياسات المنطقية .

وعلى هذا فاننا نزف الارجوزة الى اطبائنا الكرام ، والى من يهتمّ بتاريخ الطب القديم من ادبائنا الافاضل .

---

١) الطب توطئة الارجوزة في الورقة [١ ن]
٢) الطب خاتمة الارجوزة في الورقة [١٢ ن]